مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- المخطط الاستعجالي لإصلاح التعليم (2009-2011)
- التربية والعولمة في الوطن العربي (منتدى الفكر العربي)
- أجرأة «الميثاق الوطني للتربية والتكوين»
- واقع التعليم في الوسط القروي

العدد السابع والثلاثون- يونيو 2008

مدرسة بالو ألطو: مدرسة التواصل

إدموند مارك Edmond Marc

مدرسة بالو ألطو: مدرسة التواصل

• ترجمة وتقديم:
عبد العزيز السراج

1 - تقديم

مدرسة بالوألطو «Palo Alto» نسبة إلى المدينة الصغيرة الموجودة بكاليفورنيا «Californienne»، وقد ركزت هذه المدرسة على الفكرة التي مؤداها أن معنى تواصل ما يتوقف أساسا على السياق المنجز داخله، حيث أكد العلماء المنتمون إلى هذه المدرسة (كريكوري باتسون، بول فاتسلافيك، دون جاكسون...إلخ) على أهمية السياق من خلال استخلاص مفهوم التناظير استنادا إلى السياق ذاته.

وثمة قاعدة تنسب إلى بالو ألطو تقضي بأنه «لا يمكن أن لا نتواصل»، ومفادها أن كل جزئية في حياتنا تعتبر عنصرا تواصليا على اعتبار أن لكل سلوك اجتماعي قيمة تواصلية.

والمقال الذي نترجمه لصاحبه ادموندمارك يبين فيه الإنجاز الهام الذي جاءت به مدرسة بالوألطو المتمثل في اقتراح نظرية جديدة للتواصل، تتجلى في تجاوز النموذج التواصلي الخطي المحض الذي يمثله كلود شانون ثم بعده وورومان جاكبسون، وتعويضه بالنموذج النسقي على اعتبار أن التواصل، من منظور مدرسة بالوالطو، أساس أي خلل قائم داخل النسق العائلي الاجتماعي ولا يتم التركيز على الجذور التاريخية لهذا الخلل، على خلاف المنهج الفرويدي، بقدر ما يراعي النسق العائلي الاجتماعي في حالته الحاضرة ويدرس نظام العلائق القائم فيه. ولعل من المفاهيم الأساسية التي اعتمدت عليها مدرسة بالوألطو في هذا الإطار مفهوم الإجبار المزدوج «Double contrainte»، كمفهوم ذا قيمة علمية أساسية مكنت من فهم حالة انفصام الشخصية بمعزل عن التصور الفرويدي.

2 - متن الترجمة:

تشكل مدرسة بالوألطو تيارا فكريا يجمع بين الأنتروبولوجيين وعلماء النفس والأطباء النفسانيين «Les thérapeutes»، ولقد جدد [هذا التيار] السلوكات الإنسانية وذلك من خلال التركيز على النسق العائلي الاجتماعي وليس على الأفراد، حيث أحدثت أبحاث هذا التيار مقاربة جديدة [في مجال] العلاج النفساني – العلاج النفسي العائلي – «La thérapie familiale»، بل لها أيضا تأثيرعلى تحليل التواصل، وكذلك على سيرورات التحول الاجتماعي.

تنحدر مدرسة بالو الطو من مدينة صغيرة بكليفورنيا، وتمثل تيارا للبحث متعدد التخصصات، ظهر في الخمسينات، سيعنى بإشكالية التواصل وتطبيقاتها على الباتولوجية العقلية، ولعل الذي ألّف بين اختلافات أعضاء هذه المدرسة، هو النزوع نحو المسعى النسقي «systémique» كمرجع مشترك. وتتكون هذه المدرسة من فريقين، يضم الفريق الأول كريكوري باتسون «Gegory Bateson»، الذي بفضل أبحاثه اعتبر الأب الروحي لهذه المدرسة. أما الفريق الثاني فينشطه السيكولوجي جاكسون Don. D. Jackson الذي أسس سنة 1958 (MRI) «المؤسسة العقلية للبحث» «Mental Recerch institue» التي تجنح نحو العلاج النفسي.

لقد ولد كريكوري باتسون سنة 1904 بإنجلترا، وتابع دراساته في العلوم الطبيعية، قبل أن يعرج نحو الإثنولوجيا l'étnhologie متزوجا بالإنتربولوجية الأمريكية مارغريت ميد (Margaret Mead)، وقد أنجزا معا العديد من الأبحاث الميدانية حول الثقافة البدائية.

تلاق العلوم الاجتماعية والسيبرنتيكية

يعد عمل ج_ باتسون المعنون ب « نافين» «Naven» حدثا في مجال العلوم الاجتماعية، حيث يسرد فيه (باتسون) وقائع الحياة العادية للعشائر التي شكلت محورا لدراسته، كما أنه أبان عن انشغال مضاعف تنظيريا ومنهجيا، حيث حاول من جهة إعداد نظرية عبرثقافية «trans_culturelle» منسجمة، يمكن تطبيق مفاهيمها على نماذج أخرى من المجتمع، لذلك يقدم عمله نافين» بوصفه تأملا حول السيرورات الديناميكية الشارحة للتحولات الإجتماعية. ومن جهة ثانية بنى باتسون دراسته على الإكتشافات السيكولوجية – الإجتماعية، والعلاج النفسي «psychiatrie» والعلوم السياسية أكثر من الإستناد على الأنتروبولوجيا، ففي سنة 1942 درس باتسون في مؤلفه (Balinese character! à photographie Analyses) الثقافية البالينية من خلال تحليل دقيق ورصين للتفاعلات بين الأفراد ولاسيما لأشكالهم غير اللفظية. ويعد هذا المؤلف بالنسبة ل (باتسون) نهاية المرحلة الإثنولوجية، وبداية للخوض أكثر فأكثرفي دارسة التواصل. وبالفعل ففي سنة 1942 اكتشف (باتسون) أثناء إحدى الندوات مبادئ المسعى النسقي، كما أدرك على الفور الأجزاء التي يستطيع استخلاصها من أبحاثه [الإجتماعية]. فإلى حدود الآن، اعتبر التواصل مقتصرا على الزاوية الديناميكية للقدرات أو العلاقات السببية، حيث قام باتسون بعد ذلك بالتأمل في التواصل كنسق من الرسائل موظف في شكل « حلقات» «boucles» التي من خلالها تزود طاقة الإستجابة عند المستقبل، وليس عبرتأثير عنصر المسبّب

«declencheur» (حيث تكمن أهمية مفهوم التغذية الراجعة feed_BackK). وعليه، فقد عمل باتسون على تطبيق مبادئ المسعى النسقي في [مجال] العلوم الإجتماعية، ولاسيما في دراسة التواصل. وقد قاومت هذه المقاربة [النسقية] التصور الخطي – الذي هو بشكل ما حتمي – التتابعي للأفعال وردود الأفعال بين الأشياء المعزولة، واستبدلته (التصور الخطي التتابعي) بمنظور مؤسس حول فكرة العلية الدائرية.

وفي سنة 1956 نشر باتسون مع الفريق الذي يشتغل معه، النظرية المشهورة الموسومة ب «الإجبار المزدوج» «double bind»، مبينا أن السلوك الفصامي «schizophrine» شكل لتبني التواصل المتناقض (سلوك الرسائل المتناقضة).

ولقد أثارت أبحاثه [الإجتماعية] إبداع مؤسسة الأبحاث العقلية «Mental Research Institute» التي توخت تطبيق المسعى النسقي في مجال العلاج النفسي، إذ في سنة 1961 سيعمل بول فاتسلافيك P. Watzlawick ضم هذا (الجهاز) العضوي الذي بفضله سيلعب دورا هاما، لاسيما فيما يتعلق بالتطبيقات العلاجية «théraputiques». هكذا أصبحت مدرسة بالو ألطو موسومة في ثلاث مجالات وذلك من خلال: اقتراح نظرية جديدة للتواصل، ثم بلورة منهجية أصيلة للتحول [الاجتماعي]، ثم إرساء ممارسة علاجية من حيث العمق.

المقاربة النسقية للتواصل

تَعتبر النماذج الأولى للتواصل هذا الأخير بوصفه نقلا للأخبار (متضمنة رسالة ما) من باعث نحو مستقبل، انطلاقا من سنن مشترك، لذلك ستعمل المقاربة النسقية على تجاوز هذا النموذج (الخطي) مستندة على المبادئ الأساسية التالية:

❖ التواصل باعتباره ظاهرة اجتماعية: حيث يتم التركيز على العلاقة التي تربط بين الأفراد وليس على الفرد بمعزل عن الآخر (كما تسلم بذلك السيكولوجية التقليدية). فكل تدخل لعضو من نسق ما (عائلة، فريق، تنظيم... الخ) يعد بمثابة استجابة لتدخل الآخر، بل يشكل بدوره مثيرا الذي من خلاله يصدر رد فعله وهكذا زواليك.

وعلى هذا الأساس، فالتواصل سيرورة دائرية بحيث تحدث كل رسالة تغذية راجعة feed Back لدى المخاطب «l'interlocuteur».

❖ لا يختزل التواصل في الرسائل اللفظية فحسب، على اعتبار أن لكل سلوك اجتماعي قيمة تواصلية. ففي حالة التفاعل «لا يمكن أن لا نتواصل»: إذ إن الإيماءات، أو الحركات أو المواقف، بل أيضا السلوكات تنقل رسالة ما، ف (الصمت يمكن أن يدل على الخجل، أو التحفظ، أو القمع أو الامتعاض).

❖ يتحدد التواصل من خلال السياق الذي يؤطره، ويُعنى هذا السياق بالعلاقات التي تربط بين الأشخاص الذي يتواصلون (علاقات بين مجهولين، وبين الزملاء في العمل، وبين الآباء وأبنائهم)، في الإطار الذي يتم فيه التفاعل، وكذا المقام الذي يجعل المتعارضين في علاقة، وبذلك يغدو السياق إطارا رمزيا عاملا للمعايير والقواعد، والنماذج، وطقوس التفاعل.

❖ تقتضي كل رسالة مستويين من الدلالة، فهي لا تنقل المحتوى الإخباري فحسب (وقائع، آراء، مشاعر أو تجارب المتكلم)، بل تعبر أيضا عن شيء ما حول العلاقة التي تربط المتخاطبين «Interlocuteur»، فعندما يقول رجل مَا لامرأة أنت ترتدين فستانا جميلا، فهو بذلك ينقل له رأيه، وبموازاة ذلك يمكن ان تنسج علاقة إعجاب بينهما.

تبنى العلاقة بين المتخاطبين حسب نموذجين كبيرين هما: النموذج التناظري «symétrique»، والنموذج التكاملي «complémentaire». ففي النموذج الأول تحدد العلاقة كنصير «égalitaire»، وأن للمتنافرين سلوكات براقة، وفي النموذج الثاني يتأقلم المتنافرون (مع) سلوكات شديدة التضاد تطابق بين الفرد والآخر. حيث يمكن للعلاقة التكاملية أن تصبح تراتبية «Hiérarchique»، بمعنى أنها تأخذ وضع «صاعد» وآخر «نازل» ك (علاقة المشغل بمستخدمه).

❖ تتجلى الفرضية الأخيرة والأساسية في كون أغلب أشكال الأمراض العقلية، يمكن أن ترد إلى التشويشات والخلل الوظيفي للتواصل، من هنا تبدو أهمية الميتا_تواصل الذي يعتبر ضربا من التواصل حول مختلف مظاهر التواصل.

مفهوم التحول

إن لأنساق الإنسانية، كالعائلة، نزوع نحو الإتزان «homéostasie»، بتعبير أدق، الحرص على إبقاء بعض التوازن في العلاقات بين أفراد العائلة، فهذا الإتزان ضروري غير أنه يمكن أن يجعل التحولات (الاجتماعية) الناجمة عن العوامل الخارجية (نمو الأطفال)، أو الداخلية (كالعطالة) صعبة. وتميّز مدرسة بالوألطو بين نوعين من التحول: التحول الأول يوجد داخل النسق الذي يظل هو نفسه ثابتا. و(التحول الثاني) هو الذي يبدل وظيفة نسق ما. فعندما ينتج نسق ما وقائع باتولوجية، فإننا نكون بإزاء (التحول الثاني) الذي ينبغي أن نتحداه. فمثلا المراهق الذي يحتج على سلطة والديه، يمكن أن يثير بدون تحفظ رد فعلهم، مما يستنتج احتمالا احتجاجا أكثر... الخ (التحول الأول). لكن بإمكانهم محاولة تغيير العلاقة مع أبنائهم، وكذا السياق الذي ولد هذه الردود الأفعال (التحول الثاني). فأغلب إجراءات العلاج النفسي «psychothérapeutiques" تعتبر أن المشاكل العلائقية لفرد ما، ناجمة عن شخصيته ووظيفته البين – نفسية Intrapsychique.

ممارسة علاجية نفسية جديدة

تقلب مدرسة بالوألطو جذريا هذا المنظور، بحيث إن الإضطرابات العلائقية: (التي هي اضطرابات تواصلية) بإمكانها شرح التجليات الباتولوجية للفرد: فالبين – نفسي خاضع للتفاعلي.

وعليه، إذا أردنا التصدي لهذه الإضرابات: فإنه ينبغي تبديل السياق العلائقي الذي ولدها. فالهدف من العمل العلاجي_النفسي ليس هو الفرد الحامل للعرض symptôme، بل هو النسق (الذي غالبا ما تمثله العائلة) المسؤول (عن هذا العرض)، والذي كان أيضا وراء ميلاد فكرة العلاج النفسي العائلي (thérapie familiale)

الذي عرف انتشارا واسعا ونجاحا كبيرا. إنها (الفكرة) تعمل على الجمع بين كافة أفراد العائلة أمام الطبيب النفسي (أو في الغالب زوج من المعالجين النفسانيين) في النسق التواصلي العائلي.

وفي الختام تشكل نجاعة أبحاث مدرسة بالو ألطو، بكل تأكيد، إحدى التيارات الأكثر تجديدا، والأكثر خصوبة في التطور الحديث للعلوم الإنسانية.

ملحوظة:

هذا المقال هو ترجمة للفصل الخامس من كتاب: La communication état des savoirs وهو عمل جماعي من تنسيق فليب كبين (Philipe cabine) منشورات sciences humaines الطبعة II السنة 1998. ص [131_134]